

## سورة محمد صلى الله عليه وسلم

وتسمى سورة القتال

هي مدنية إلا آية ١٣ فقد نزلت في الطريق أثناء الهجرة .

وعدة آياتها ثمان وثلاثون آية . نزلت بعد الحديد .

ولا تخفى قوة ارتباطها بما قبلها ، فإن أولها متلاحم بآخر السورة السابقة ، حتى لو أسقطت البسمة من اليمين لكان الكلام متصلا بسابقه لانتفاضه ، وكان بعضه آخذاً بمُجْزَ بعض .

أخرج الطبراني في الأوسط عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأها في صلاة المغرب .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (١) وَالَّذِينَ  
آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ  
كَفَرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ (٢) ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا  
الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ  
لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ (٣) .

### شرح المفردات

صدّوا عن سبيل الله : أى صرفوا الناس عن الدخول فى الإسلام ، وذلك يستلزم أنهم منعو أنفسهم عن الدخول فيه ، أضلّ أعمالهم : أى أبطلها ، وهو الحق

من ربهم : أى وهو الحق الثابت الذى لا مرية فيه ، بألهم : أى حالهم فى الدين والدنيا بالتوفيق لصالح الأعمال ، وأصل البال : الخال التى يكثر بها ، ولذلك يقال ما باليت به : أى ما اكثرت به ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم « كل أمر ذى بال » الحديث . يضرب الله للناس أمثالهم : أى يبين لهم مآل أعمالهم وما يصيرون إليه فى مقامهم .

### المعنى الجملى

قسم الله الناس فريقين : أهل الكفر الذين صدوا الناس عن سبيل الله ، وهؤلاء يبطل أعمالهم سواء كانت حسنة كصلة الأرحام وإطعام الطعام ، أو سيئة كالكيد لرسول الله والصدّة عن سبيل الله ، فالأولى يبطل ثوابها ، والثانية يمحوا أثرها ، وهكذا كل من قاوم عملا شريفاً فإن مآله الخذلان .

وأهل الإيمان بالله ورسوله الذين أصلحوا أعمالهم ، وأولئك يفرغ الله لهم سيئات أعمالهم ويوفقهم فى الدين والدنيا ، كما أضع أعمال الكافرين ولم يُثب عليها .

ثم علل ماسلف بأن أعمال الفريقين جرت على ما سنه الله فى الخليقة : بأن الحق منصور ، وأن الباطل مخذول سواء كان فى أمور الدين أم فى أمور الدنيا ، فالصناعات الحكمة إنما يقبل الناس عليها ويؤثرونها ، لأنها جارية على الطريق القويم والنسق الحق ، وهكذا الشأن فى المزروعات والمصنوعات المتقنة الجيدة ، والسياسات الحكيمة .

فالصناعات المردولة والسلع المزجاة لن يكون حظها إلا الكساد والبوار ، لأن الباطل لا يثبت له ، والحق هو الثابت ، والله هو الحق فينصر الحق ، والعلم الصحيح والدين الصحيح والصناعات الجيدة والآراء الصادقة تتأججها السعادة ، وضدها عاقبته الشقاء والبوار .

وقصارى ذلك — إن الله سبحانه خلق السموات والأرض بالحق وعلى قوانين

ثابتة منظمة ، فكل ما قرب من الحق كان باقيا ، وكل ما ابتعد عنه كان هالكا ،  
فرجال الجِدِّ والنشاط مؤيدون ، ورجال الكسل والتواكل مخذولون ، والمحققون  
في كل شيء محبوبون منصورون .

## الإيضاح

( الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم ) أى الذين جحدوا  
توحيد الله وعبدوا غيره وصدوا من أراد عبادته والإقرار بوحدانيته وتصديق نبيه  
عما أراد — جعل الله أعمالهم تسير على غير هدى ، لأنها عملت في سبيل الشيطان  
لا في سبيل الرحمن ، وما عمل للشيطان فأله الخسران .

فأعلموه في الكفر عما كانوا يسمونه مكارم أخلاق : من صلة الأرحام وفك  
الأسارى وإطعام الطعام وعمارة المسجد الحرام وإجارة المستجير وقرى الأضياف  
ونحو ذلك — حكم الله ببطلانه ، فلا يرون له فى الآخرة ثوابا ، ويجزون به فى الدنيا  
من فضله تعالى .

ونحو الآية قوله : « وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا » .

قال ابن عباس : نزلت الآية فى المطعمين بيدر، وهم اثنا عشر رجلا : أبو جهل ،  
والخارث بن هشام ، وعتبة ، وشيبة ابنا ربيعة ، وأبى ، وأمية ابنا خلف ، ومُنْبِه وُنْبِيه  
ابنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، وزنعة بن الأسود ، وحكيم بن حزام ،  
والحرث بن عامر بن نوفل .

ولما ذكر سبحانه جزاء أهل الكفر ، أتبعهم بثواب أهل الإيمان فقال :

( والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم  
كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ) أى والذين صدقوا الله وعملوا بطاعته واتبعوا  
أمره ونهيه وصدقوا بالكتاب الذى نزل على محمد ، وهو الحق من ربهم — مح الله

بفعلهم سيء ماعملوا فلم يؤاخذهم به ، وأصلح شأنهم في الدنيا بتوفيقهم لسبل السعادة ، وأصلح شأنهم في الآخرة بأن يورثهم نعيم الأبد والخلود الدائم في جناته . قال ابن عباس نزلت الآية في الأنصار .

ثم بين سبب الإضلال ، وإصلاح الباطل فقال :

(ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من ربهم) أي وإنما أبطنا أعمال الكفار وتجاوزنا عن سيئات الأبرار ، وأصلحنا شئونهم ، لأن الذين كفروا اختاروا الباطل على الحق بما وسوس إليهم به الشيطان ، ولأن الذين آمنوا اتبعوا الحق الذي جادهم من ربهم ، فأتار الله بصائرهم وهداهم إلى سبل الرشاد .

(كذلك يضرب الله للناس أمثالهم) أي كما بينت لكم فعلى فريق الكفار والمؤمنين . كذلك تمثل للناس الأمثال ونشبه لهم الأشباه ، فنلحق بالأشياء أمثالها وأشكالها .

والخلاصة — إنه جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، والإضلال مثلا لخبيثهم ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين ، وتكفير سيئاتهم مثلا لنفوزهم ، وهكذا شأن القرآن يوضح الأمور التي فيها عظة وذكرى بضرب الأمثال كما ضرب المثل بالنخل والحنظل في سورة أخرى .

فَإِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا ائْتَمْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَتَاقَ ، فَإِمَّا مَنَّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَآتَتْصَرَّ مِنْهُمْ ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَ بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ

بِالْهَمِّ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَفَهَا لَهُمْ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا  
 اللَّهُ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأَضَلَّ  
 أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٩) .

### شرح المفردات

لقيم من اللقاه ، وهو الحرب ، ففرض الرقاب : أى فالقتل ، وعبر به عنه تصويراً  
 له بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذى هو رأس البدن وأوجه أعضائه  
 وجمع حواسه ، وبقاء البدن ملقى على هيئة مستبشمة ، وفى ذلك من الغلظة والشدة  
 ما ليس فى لفظ القتل ، وأختتموم : أى أكثرتم القتل فيهم ، فشدوا الوثاق : أى  
 فأسروهم ، والوثاق : ( بالفتح والكسر ) : ما يوثق به ، منأ : أى إطلاقاً من الأسر  
 بالمجان ، فداء : أى إطلاقاً فى مقابلة مال أو غيره ، والأوزار فى الأصل : الأحمال  
 ويراد بها آلات الحرب وأثقالها من السلاح والكرع ، قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طولاً وخيلاً ذكوراً

ومن نسج داودَ موضونةً تساق مع الحى غيراً فغيراً

انتصر : أى انتقم ببعض أسباب الهلاك من خسف أو رجفة أو غرق ، ليلو :  
 أى ليختبر ، يضل : أى يضيع ، بالهم : أى شأنهم وحالم ، عرفها : أى بينها وأعلمها ،  
 إن تنصروا الله : أى تنصروا دينه ، يثبت أقدامكم : أى يوقفكم للدوام على طاعته ،  
 فتعسا لهم ، من قولهم : تعس ( بفتح العين ) الرجل تعسا : أى سقط على وجهه ، وضده  
 انتمش : أى قام من سقوطه ، ويقال تعسا ونكسا ( بضم النون ) : أى سقطوا على  
 الوجه وسقطوا على الرأس ، أحبط أعمالهم : أى أبطلها .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن الناس فريقان : أحدهما متبع للباطل، وهو حزب الشيطان ، وثانيهما متبع للحق ، وهو حزب الرحمن - ذكر هنا وجوب قتال الفريق الأول حتى ينفى إلى أمر الله ، ويرجع عن غيئه ، وتخضد شوكته .

## الإيضاح

( فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا اخنتنتم فشدوا الوثاق فإما مناً بعداً وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ) أى فإذا واجهتم المشركين فى القتال فأحصدوهم حصداً بالسيوف حتى إذا غلبتموهم وقهرتم من لم تضربوا رقابهم وصاروا فى أيديكم أسرى فشدوهم فى الوثاق ، كى لا يقاتلوكم أو يهربوا منكم ، ثم أتم بعد انتهاء الحرب وانتهاء المارك - بالخيار فى أمرهم ، إن شئتم مندم عليهم فأطلقتموهم بلا عوض من مال أو غيره ، وإن شئتم فاديتموهم بمال تأخذونه منهم وتشاطروهم عليه - حتى لا يكون حرب مع المشركين ولا قتال ، بزوال شوكتهم .

ونحو الآية قوله تعالى « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ » . قال ابن عباس رضى الله عنهما : لما كثر المسلمون واشتد سلطانهم أنزل الله تعالى فى الأسارى ( فأما مناً بعد وإما فداء ) وكان عليه عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء من بعده . روى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : « بعث النبى صلى الله عليه وسلم خيلاً قبيل نجد ، فجاءت برجل من بنى حنيفة ، يقال له ثمامة ابن أثال ، فربطوه فى سارية من سواري المسجد ، فخرج إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال ما عندك يا ثمامة ؟ فقال : عندى خير ، إن تقبلنى تقبل ذا دم ، وإن تنعم تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل ماشئت ، حتى كان الغد ، فقال له صلى الله عليه وسلم : ما عندك يا ثمامة ؟ قال عندى ما قلت لك ، قال : أطلقوا

تمامة ، فانطلق إلى نخل قريب من المسجد فاغتسل ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، والله ما كان على وجه الأرض وجه أبغض إلى من وجهك ، فقد أصبح وجهك أحب الوجوه إلى ، والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى ، والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فقد أصبح بلدك أحب البلاد إلى ، وإن خيلك أخذتني وأنا أريد العمرة فإذا ترى ؟ فبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمره أن يعتمر ، فلما قدم مكة قال له قائل : صبوت ، قال لا ولكن أسلمت مع محمد صلى الله عليه وسلم .

وعن عمران بن حصين قال : أسر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً من عميل فأوثقوه ، وكانت ثقيف قد أسرت رجلين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ، فقدها رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتها ثقيف .

واعلم أن للحرب فوائد ، وللسلم أخرى ، فالأمم في حال الطفولة عقولها أشبه بعقول الشاب المراهق الذي لم يبلغ الحلم ، تراه يقاتل الصبيان ويشاجرهم ويوقع الأذى بهم وهم يزيدون في أذاه ، وينكفون به ، وهذه هي حال الأمم اليوم .

ألا إن الحرب تقوي الأبدان ، وترقى الصناعات ، وتجعل الأمم تنمو ، وتوقظ الشعور ، وتفتح المغلق ، وتيسر العسير ، قال أرسطو للإسكندر : إن الراحة مضرة للأمم ، ومن ثم قيل : إذا أردت رقي أمة فاجعلها تخوض الحروب ؛ فذلك يفتح لها باب السعادة ؛ والأمم النائمة على فراش الراحة الوثير معرضة للزوال .

فإذا كملت أخلاق الأمم ومواهبها ، فإن نتائج السلم عندها ستكون كنتائج الحرب لدى من قبلها ، فكما يفرح الرجل في الأمم الحاضرة بقلبة الأعداء وشفاء الغليل وجمع الرجال والسلاح والكراع ، فسيكون فرح الأمم فيما بعد بمساعدة غيرها وانسراح صدورهم بظهور أم أخرى تكافح معها في ميدان الحياة ، ويكون كل فرد في الأمم المقبلة أشبه بالأب يكدح لمساعدة أبنائه ، وهذا الكدح والجِد في العمل لفائدة الجميع يجد فيه العامل لذة وفرحاً أشد من فرح المنتصر في ميادين القتال .

إن الأمم لاتزال في الطَّور الأول ، فهي تسمى لإسعاد نفسها بإهلاك سواها ، وسيأتي حين تسمى فيه لإسعاد الجميع ، ويكون فرحها بهذا المسمى أشد من فرحها بهزيمة الأعداء ، ويكون الناس جميعا بعضهم لبعض كالآباء والأبناء .

وإلى حال الكمال أشار سبحانه بقوله : ( حتى تضع الحرب أوزارها ) وإلى حال النقص أشار سبحانه بقوله :

( ذلك ) أى هذا الذى أمرتكم به من قتل المشركين إن لقيتموهم في حرب وشدة وثاقهم في أسرمهم والمن والغداء حتى تضع الحرب أوزارها — هو الحق الذى أمركم به ربكم ، وهو السنة التى جرى عليها لإصلاح حال عباده ، وهى التى ستبقى السنة الطبيعية بين الأمم مادامت فى طور طفولتها ، حتى يتم نضجها العقلى والخلقى فتضع الحرب أوزارها ، إذ لا يكون هناك حاجة إليها ، لأن العالم كله يكون كأسرة واحدة ، سعادته بسعادة أفرادها جميعا ، وشقاؤه بشقاؤهم .

ثم بين أن هذه هى السنة التى أرادها الله من حرب المشركين ، ولو شاء لانتقم منهم بلا حرب ولا قتال ، فقال :

( ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض ) أى ولو يشاء ربكم لانتصر من هؤلاء المشركين بعقوبة عاجلة ، وكفأكم أمرهم ، ولكنه أراد أن يبلو بعضكم ببعض فيختبركم بهم ، فيعلم المجاهدين منكم والصابرين ويبلوهم بكم ، فيعاقب بأيديكم من شاء ، ويتعظ منهم من شاء بمن أهلك بأيديكم حتى ينيب إلى الحق .

وفى الجهاد تقوية لأبدانكم ، ورفق لعقولكم ، ونفاذ لكلماتكم ، وجمع اشملكم بما ترون من اتحاد عدوكم ، وبه ترقى الزراعة والتجارة والصناعة وجميع العلوم ، إذ لا يتم حرب ولا غلبة إلا بها ، وهكذا ترقى حال الأعداء ، فيتسع العمران ، وتم المدنية ، ويرقى النوع الإنسانى ، ولا يعيش فى هذا الوسط الصاحب إلا الصالح للبقاء ، والضعيف من الطرفين هالك ، وهذه هى سنة الله فى الكون .

ثم ذكر جزاء المجاهدين في سبيل الله فقال :

( والذين قتلوا في سبيل الله فلن يغفر الله لهم ) أى والذين جاهدوا أعداء الله في دين الله وفي نصرته ما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى ، فلن يجعل أعمالهم التي عملوها في الدنيا ضائعة سدى ؛ كما أذهب أعمال الكافرين وجعلها عديمة الجدوى .

روى أحمد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يعطى الشهيد ست خصال . عند أول قطرة من دمه تكفر عنه كل خطيئة ، ويرى مقعده من الجنة ، ويزوج من الحور العين ، ويأمن من الفرع الأكبر ، ومن عذاب القبر ، ويحلى حلة الإيمان » .

وأخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن قتادة قال : ذكر لنا أن هذه الآية نزلت يوم أُخِد ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم في الشعب ، وقد فشت فيهم الجراحات والقتل ، وقد نادى المشركون : اعلُّ هُبَل ( أكبر أصنامهم ) ونادى المسلمون : الله أعلى وأجل . وقال المشركون : يوم بيوم بدر والحرب سجال . فقال النبي صلى الله عليه وسلم : قولوا لاسواء . قتلنا أحياء عند ربهم يرزقون ، وقتلناكم في النار يمدبون ، فقال المشركون : إن لنا العزى ولا عزى لكم . فقال المسلمون : الله مولانا ولا مولى لكم » .

ثم فسر ماسلف بقوله :

( سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم ) أى سيوقفهم الله للعمل بما يرضيه ويحبه ، ويصونهم مما يورث الضلال ، ويصلح شأنهم في العقبى ، ويقبل أعمالهم ، ويجعل لكل منهم مقراً في الجنة لا يضل في طلبه .

لاجرم أن لكل امرئ في الحياة عملاً يستوجب حالاً في الآخرة لا يتعدها ، كما يحصل كل من نال إجازة في علم أو صناعة على عمل يشاكل إجازته في قوانين الدولة .

والناس في الآخرة أشبه بأنواع السمك في البحر المالح وأنواع الطير في جو السماء لكل منها جو لا تتعداه ، هكذا لكل من الصالحين درجة في الآخرة لا يتعداها ، بل يجد نفسه مقهوراً على البقاء فيها ؛ كما أن السمك منه ماهو قريب من سطح الماء ، ومنه ما يوجد تحت سطح الماء بمئات الأمتار أو آلافها ، وإلى ذلك يشير قوله : « **وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا** » .

أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن مجاهد قال : يُهْدَى أهل الجنة إلى بيوتهم ومساكنهم ، وحيث قسم الله لهم منها ، لا يخطئون ؛ كأنهم ساكنوها منذ خلقوا ، لا يستدلون عليها .

وفي الخبر : « لأحدم بمنزله في الجنة أعرف منه بمنزله في الدنيا » .

ثم وعدم سبحانه بنصرهم على أعدائهم إذا نصروا دينه بقوله :

( يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصَرُوا لِلَّهِ تَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ) أى إن تنصروا دين الله ينصركم على عدوكم ، ويثبت أقدامكم في القيام بحقوق الإسلام ومجاهدة الكفار ، لتكون كلمة الله هي العليا ، وكلمة المشركين هي السفلى :

وبعد أن ذكر جزاء المجاهدين أعقبه بجزاء الكافرين فقال :

( وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ) أى والذين كفروا بالله وجحدوا توحيدهم فغزياً لهم وشقاء ، وأبطل الله أعمالهم وجعلها على غير هدى واستقامة ، لأنها عملت للشيطان ، لاطاعة للرحمن .

ثم بين سبب ذلك الإضلال فقال :

( ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ) أى ذلك الذى فعلنا بهم من التعس وإضلال الأعمال ، من أجل أنهم كرهوا كتابنا الذى أنزلناه على نبينا محمد

صلى الله عليه وسلم فكذبوا به وقالوا هو سحر مبين ، فن ثم أحبط أعمالهم التي عملوها في الدنيا وأصلهم سميرا .  
وقصارى ذلك — إن كل ماعمله في الدنيا من صالح الأعمال فهو باطل ، لعدم الإيمان الذى هو أساس قبول الأعمال .

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ  
ذَرَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا (١٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا  
وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ (١١) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا  
الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ  
وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَشْوَى لَهُمْ (١٢) وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ  
هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجْتِكَ أَهْلَكَ كُنَّا لَهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ (١٣)  
أَفَمَنْ كَانَ عَلَى يَدِينِهِ مِنَ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوهُ  
أَهْوَاءَهُمْ (١٤) .

### المعنى الجملى

بعد أن نعى سبحانه على الكافرين مغيبة أعمالهم ، وأن النار مشوى لهم —  
أردف هذا أمرهم بالنظر في أحوال الأمم السالفة ورؤية آثارها ، لما للمشاهدات  
الحسية من آثار في النفوس ، ونتائج لدى ذوى العقول ، إذا تدبروها واعتبروا بها .

### الإيضاح

(أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) أى أفلم  
يسر هؤلاء المكذبون محمدا صلى الله عليه وسلم ، المنكرون ما أنزلنا عليه من

الكتاب — في الأرض فيروا نعمة الله التي أحلها بالأمم الغابرة ، والقرون الخالية ، حين كذبوا رسلهم كعاد وتمود ، ويتعظوا بذلك ، ويحذروا أن تفعل بهم كما فعلنا من قبلهم .

ثم ذكر ما فعله بهم فقال :

(دمر الله عليهم) يقال دمرته: أهلكه ، ودمر عليه: أهلك ما يختص به ، أى أهلك ما يختص بهم من الأهل والولد والمال ، أفلا يعتبر هؤلاء بما حل بمن قبلهم فعملوا أن ما حاق بهم من سوء المنقلب — لا بد أن يحل بهم مثله على حسب ما وضعه سبحانه من السنن في الأمم المكذبة لرسلاها ، ولن تجد لسنة الله تبديلا ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(وللكافرين أمثالها) أى ولهؤلاء الكافرين السائرین سيرتهم أمثال هذه العاقبة التي ترون آثارها .

ثم بين السبب في حلول أمثال هذه العاقبة بهم فقال :

(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا ، وأن الكافرين لا مولى لهم) أى هذا الذى فعله بهم من التدمير والهلاك ، ونصر المؤمنين وإظهارهم عليهم بسبب أن الله ولى من آمن به وأطاع رسوله ، وأن الكافرين لا ناصر لهم ، فيدفع ما حل بهم من العقوبة والعذاب .

ونفى المولى عنهم هنا لا يخالف إثباته في قوله : « **ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ** » لأن المراد به هناك المالك لأموالهم ، المتصرف في شؤونهم .

قال قيادة : نزلت يوم أحد والنبي صلى الله عليه وسلم في الشعب ، إذ صاح المشركون : يوم بيوم ، لنا العزى ولا عزى لكم ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم « **قولوا الله مولانا ولا مولى لكم** » وقد تقدم هذا برواية أخرى .

وبعد أن بين حالى المؤمنين والكافرين فى الدنيا، بين حالهم فى الآخرة فقال :  
 ( إن الله يدخل الذين آمنوا و عملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار )  
 أى إن الله ذا الجلال والكمال يدخل يوم القيامة من آمنوا به وصدقوا رسوله و عملوا  
 صالح الأعمال — بساتين تجري من تحت قصورها الأنهار كرامة لكم على إيمانهم  
 بالله ورسوله واليوم الآخر .

( والذين كفروا يتمتعون و يأكلون كما تأكل الأنعام ) أى والذين جحدوا  
 توحيد الله وكذبوا رسوله صلى الله عليه وسلم يتمتعون فى هذه الدنيا بحطامها ورياشها  
 وزينتها الفانية ، و يأكلون فيها غير مفكرين فى عواقبهم ومنتهى أمورهم ،  
 ولا معتبرين بما نصب الله خلقه فى الآفاق والأنس من الحجج المؤدية إلى معرفة  
 توحيده وصدق رسوله ، فمثلهم مثل البهائم تأكل فى معالها ومسارحها ، وهى  
 غافلة عما هى بصدده من النحر والذبح ، فكذلك هؤلاء يأكلون ويتلذذون وهم  
 ساهون لاهون عن عذاب السعير .

( والنار مثوى لهم ) أى ونار جهنم مسكن ومأوى لهم يصيرون إليها بعد مماتهم .  
 واخلاصة --- إن المؤمنين عرفوا أن نعم الدنيا ظل زائل فتركوا الشهوات ،  
 وتفرغوا للصالحات ، فكانت عاقبتهم النعم المقيم فى مقام كريم ، وإن الكافرين  
 غفلوا عن ذلك فرتعوا فى الدمن كالبهائم حتى ساقهم الخلدان ، إلى مقرهم من درك  
 النيران ، أعاذنا الله منها .

وبعد أن ضرب لهم المثل بقوله : « أَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ » ولم يعتبروا به  
 وذكر لهم ماتقدم من الأدلة على وحدانيته — ضرب المثل لنيبه تسلية له عما يلاقى  
 من عنت قومه وجحودهم فقال :

( وكأين من قرية هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك أهلكتناهم فلا ناصر  
 لهم ) أى وكثير من الأمم التى كان أهلها أشد بأسا وأكثر جمعا ، وأعدّ عديدا من

أهل مكة الذين أخرجوك — أهلكتناهم بأنواع العذاب ولم يجدوا ناصرًا ولا معينًا يدفع عنهم بأسنا وعذابنا ، فاصبر كما صبر قبلك أولو العزم من الرسل ، ولا تبخع نفسك عليهم حسرات ، فإله مظهرك عليهم ، ومهلكهم كما أهلك من قبلهم إن لم يفتنوا إلى ربهم ، ويشوبوا إلى رشدكم .

وغير خافٍ ما في هذا من التهديد الشديد ، والوعيد الأكيد لأهل مكة .

أخرج عبد بن حميد وأبو يعلى وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عباس «أن النبي صلى الله عليه وسلم لما خرج من مكة إلى الغار التفت إلى مكة وقال: أنت أحب بلاد الله إليّ ، وأنت أحب بلاد الله إليّ . ولولا أن أهلك أخرجوني لم أخرج منك ، وأعدى الأعداء من عدا على الله في حرمه ، أو قتل غير قاتله ، أو قتل بدحول (نارات) الجاهلية ، فأنزل الله سبحانه على نبيه (وكأين من قرية)» الآية .

ثم ذكر الفارق بين حالى المؤمنين والكافرين والسبب فى كون هؤلاء فى أعلى عليين وأولئك فى أسفل سافلين ، فقال :

(أفمن كان على بينة من ربه كمن زين له سوء عمله واتبعوا أهواءهم؟) أى أفمن كان على بصيرة ويقين فى أمر الله ودينه بما أنزله فى كتابه من الهدى والعلم ، وبما فطره الله عليه من الفطرة السليمة ، فهو على علم بأن له رباً يجازيه على طاعته إياه بالجنة ، وعلى إساءته ومعصيته إياه بالنار — كمن حسن له الشيطان قبيح عمله ، وأراه إياه جميلاً فهو على العمل به مقيم ، وعلى السير على نهجه دائب ، واتبع هواه وجمحت به شهواته فطلق يعدو فى المعاصى ، ويحُبُّ فيها ويضع ، غير ملتفت إلى واعظ أو زاجر ؟

والخلاصة — أيستوى الفريقان . من كان ثابتاً على حجة بينة من عند ربه وهى كتابه الذى أنزله على رسوله وسائر الحجج التى أقامها فى الآفاق والأنفس . ومن زين له الشيطان سيء أعماله من الشرك وسائر المعاصى كما أخرجك من قريتك ،

واتباع هواه من غير أن يكون له شبهة يركن إليها تعاضد ما يدعيه ، وتطمئن إليها نفسه في الدفاع عما يدين به ؟ كلاًهما لا يستويان .

ونحو الآية قوله : « أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّ مَا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ مِنَ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى » وقوله : « لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ ، أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ الْفَائِزُونَ » .

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وَعَدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ ، وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ (١٥) .

### شرح المفردات

مثل الجنة : أى صفتها ، آسن : أى متغير الطعم والريح الطول مكثه ، وفعله آسن ( بالفتح من بابى ضرب ونصر ، وبالكسر من باب علم ) لذة تأنيث لذة ، وهو اللذيذ ، مصفى : أى لم يخالطه الشمع ولا فضلات النحل ولم يمت فيه بعض نحله كعسل الدنيا ، حمياً : أى حاراً ، والأمعاء : واحدها معى ( بالفتح والكسر ) وهو ما فى البطن من الحوايا .

### المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه الفارق بين الفريقين فى الاهتداء والضلال — ذكر الفارق بينهما فى مرجعهما ومآلهما ، فذكر ما للأولين من النعيم المقيم واللذات التى لا يدركها

الإحصاء ، وما للآخرين من العذاب اللازب في النار وشرب الماء الحار الذي يقطع الأمعاء .

## الإيضاح

( مثل الجنة التي وعد المتقون ) أى وصف الجنة التي وعدها الله من اتقى عقابه فأدى فرائضه واجتنب نواهيه — ما استسهمونه بعد .

ثم فسر هذه الصفة بقوله :

(١) ( فيها أنهار من ماء غير آسن ) أى فيها أنهار جارية من مياه غير متغيرة الطعم والريح لطول مكثها وركودها .

(٢) ( وأنهار من لبن لم يتغير طعمه ) أى لم يحمض ولم يصير قارصا ولا حازرا كألبان الدنيا ، وتغير الريح لا يفارق تغير الطعم .

(٣) ( وأنهار من خمر لذة للشاربين ) أى وفيها أنهار من خمر للذبة لهم ، إذ لم تدنسها الأرجل ، ولم ترتقها ( تكدرها ) الأيدي كخمر الدنيا ، وليس فيها كراهة طعم وريح ، ولا غائلة سكر وخار كخمر الدنيا ، فلا يتكرهها الشاربون .

(٤) ( وأنهار من عسل مصفى ) أى وفيها أنهار من عسل قد صفي من القذى وما يكون في عسل أهل الدنيا قبل التصفية من الشمع وفضالات النحل وغيرها .

وبدئ بالماء لأنه لا يستغنى عنه في الدنيا ، ثم باللبن لأنه يجرى مجرى المطعوم لكثير من العرب في غالب أوقاتهم ، ثم بالتمر لأنه إذا حصل الرى والشبع تشوقت النفس لما يستلذ به ، ثم بالعسل لأن فيه الشفاء في الدنيا مما يعرض من المشروب والمطعوم .

أخرج أحمد والترمذي وصححه وابن المنذر وابن مردويه والبيهقي عن معاوية ابن حيدة قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « في الجنة بحر اللبن ، وبحر الماء ، وبحر العسل ، وبحر التمر ثم تشقق الأنهار منها بعد » .

(٥) (ولهم فيها من كل الثمرات) أى ولهم فيها أنواع من الثمار المختلفة الطعوم والزوايح والأشكال .

(٦) (ومغفرة من ربهم) فهو يرضى عنهم بما أسلفوا من عمل ، ويتجاوز عن هفواتهم التى اقترفوها فى الدنيا .

وبعد أن ذكر ما وعد به المتقين من النعيم — ذكر ما أوعده الكافرين من العذاب الأليم فقال :

(١) (كن هو خالد فى النار) أى أم من هو خالد فى الجنة على حسب ماجرى به الوعد كن هو خالد فى النار كما نطق به الكتاب فى قوله : « وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ » أى ليس هؤلاء كأولئك فليس من هو فى الدرجات العلى ، كن هو فى الدرجات السفلى .

(٢) (وسقوا ماء حميا فقطع أمعاءهم) أى وسقوا ماء حارًا لا يستساع ، وإذا دنوا منه شوى وجوههم وقطع أمعاءهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ  
أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا ؟ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا  
أَهْوَاءَهُمْ (١٦) وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ (١٧)  
فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ  
إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ ؟ (١٨) فَأَعْلَمُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرُ لِدُنْبِكَ  
وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلِّبِكُمْ وِمَثْوَاكُمْ (١٩) .

## شرح المفردات

أنفًا : أى قبيل هذا الوقت، مأخوذ من أنف الشيء لما تقدم منه ، وأصل ذلك الأنف بمعنى الجارحة ثم سمي به طرف الشيء ومقدمه وأشرفه ، آثام : أى أهمهم ، بقتة : أى نجاة ، والأشراط : العلامات ، واحدها شرط ( بالسكون والفتح ) ومنه أشراط الساعة ، قال أبو الأسود الدؤلى :

فإن كنت قد أزمعتِ بالصَّرْمِ بيننا فقد جعلتِ أشراط أوله تبدو

فأنى لهم : أى كيف لهم ، ذكراهم : أى تذكرهم ، متقلبكم : أى تقلبكم لأشغالكم فى الدنيا ، ومثواكم : أى ماوأكم فى الجنة أو النار .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال المشركين وبين سوء مقببتهم — أردف هذا بيان أحوال المنافقين الذين كانوا يحضرون مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه تهاونا واستهزاء به حتى إذا خرجوا من عنده قالوا للواعين من الصحابة : ماذا قال قبل افتراقنا وخروجنا من عنده؟ — وهؤلاء قد طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم ، ومن ثم تشاغلوهم عن سماع كلامه ، وأقبلوا على جمع حطام الدنيا ، ثم أعقبه بذكر حال من اهتدوا ، وأهمهم ربهم ما يفتقون به النار ، ثم عَنَّفَ أولئك المكذابين وذكر أن عليهم أن يرعوا قبل أن تجيء الساعة التى بدت علاماتها بمبعث محمد صلى الله عليه وسلم والذكري لا تنفع حينئذ ، ثم أمر رسوله صلى الله عليه وسلم بالثبات على ما هو عليه من وحدانية الله وإصلاح نفسه بالاستغفار من ذنبه ، والدعاء للمؤمنين والمؤمنات ، والله هو العليم بمتصرفكم فى الدنيا ومصيركم إلى الجنة أو النار فى الآخرة .

## الإيضاح

(ومنها من يستمع إليك حتى إذا خرجوا من عندك قالوا للذين أوتوا العلم ماذا قال آنفاً؟) أى ومن الناس منافقون يستمعون فلا يعون ماتقول ، ولا يفهمون ماتتلو عليهم من كتاب ربك ، تغافلا عما تدعو إليه من الإيمان حتى إذا خرجوا من عندك قالوا لمن حضر مجلسك من أهل العلم بكتيابه الله: ماذا قال محمد قبل أن يفارق مجلسه؟ وما مقصدهم من ذلك إلا السخرية والاستهزاء بما يقول ، وأنه مما لا ينبغي أن يؤثبه به ، أو يلقى لمثله سمع .

روى مقاتل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يخطب ويعيب المنافقين ، فإذا خرجوا من المسجد سألوا عبد الله بن مسعود ، استهزاء : ماذا قال محمد آنفاً؟ قال ابن عباس : وقد سئلت فيمن سئل .

ثم بين سبب استهزائهم وتهاونهم بما سمعوا فقال :

(أولئك الذين طبع الله على قلوبهم واتبعوا أهواءهم) أى هؤلاء الذين هذه صفتهم — هم الذين ختم الله على قلوبهم ، فلا يهتدون للحق الذى بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم ، واتبعوا شهواتهم وما دعوتهم إليه أنفسهم ، فلا يرجعون إلى حجة ولا برهان .

ثم ذكر سبحانه أصداد هؤلاء بقوله :

(والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) أى والذين اهتدوا بالإيمان واستماع القرآن زادهم الله بصيرة وعلماً وشرح صدورهم ، وألهمهم رشدهم ، وأعانهم على تقواه . ثم بين أنهم فى غفلة عن النظر والتأمل فى عاقبة أمرهم فقال :

(فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وهم لا يشعرون) أى إنه بعد أن قامت الأدلة على وحدانية الله وصدق نبوته رسوله وأن البعث حق وأن الله يهلك

من كذب رسله ويحل بهم الوبال والنكال كما شاهدوا ذلك فيمن حولهم من الأمم التي أهلها الله لتكذيب رسلها ، ولم يبق منها إلا آثارها ، ولم يقدم كل ذلك شيئاً ولم يتعظوا ولم يؤمنوا — فماذا ينتظرون للعظة والاعتبار ؟ لا ينتظرون إلا أن تأتيهم الساعة بغتة إذ جاءت علامتها ، ولم يبق من الأمور الموجبة للتذكر والعظة للإيمان بالله سوى ذلك .

والخلاصة — إن البراهين قد نصبت ، والأدلة قد وضحت على وجوب الإيمان بالله ، وصدق رسوله ، والبعث والنشور ، وهم لم يؤمنوا — فلا يتوقع منهم إيمان بمدئذ إلا حين مجيء الساعة بغتة ، وها هي ذى أشراتها قد ظهرت ، ومقدماتها قد بدأت ، ولم يأبهوا بها ، ولا فكروا في أمرها ، والمراد بيان أنهم بلغوا الغاية في العناد ، والنهاية في الاستكبار .

ثم أظهر خطأهم ، وحكم بأن رأيهم آفن في تأخيرهم التذكر إلى قيام الساعة ، بيان أن التذكر لا يجدى نفعاً حينئذ فقال :

(فأني لهم إذا جاءتهم ذكراهم؟) أي فن أين لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة ؟ فإن الذكرى لا تنفع حينئذ ، ولا تقبل التوبة ، ولا ينفع الإيمان .

ونحو الآية قوله : « يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى » .

وبعد أن أبان أن الذكرى لا تنفع إذا انقضت هذه الدار التي جعلت للعمل — أمر رسوله بالثبات على ما هو عليه ، والاستغفار ، لأتباعه فقال :

(فاعلم أنه لا إله إلا الله واستغفر لذنبك والمؤمنين والمؤمنات) أي إذا علمت سعادة المؤمنين وعذاب الكافرين ، فاستمسك بما أنت عليه من موجبات السعادة ، واستكمل حظوظ نفسك بالاستغفار من ذنبك (وذنوب الأنبياء أن يتركوا ما هو الأولى بمنصبتهم الجليل) وتوجه بالدعاء والاستغفار لأتباعك من المؤمنين والمؤمنات .

وفي الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : « اللهم

اغفرلى خطيئتي وجهلى وإسرافي فى أمرى وما أنت أعلم به منى ، اللهم اغفرلى هزلى  
وجدى ، وخطئى وعمدى ، وكل ذلك غندى .

وثبت أنه كان يقول فى آخر الصلاة : « اللهم اغفرلى ما قدمت وما أخرت ،  
وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت وما أنت أعلم به منى ، أنت إلهى لا إله  
إلا أنت » .

وجاء أيضا أنه قال « أيها الناس توبوا إلى ربكم ، فإني أستغفر الله وأتوب إليه  
فى اليوم أكثر من سبعين مرة » .

وعن أبى بكر الصديق رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال :  
« عليكم بلا إله إلا الله والاستغفار ، فأكثروا منها ، فإن إبليس قال : إنما أهلكت  
الناس بالذنوب ، وأهلكونى بلا إله إلا الله والاستغفار ، فلما رأيت ذلك أهلكتهم  
بالأهواء فهم يحسبون أنهم مهتدون » .

وفى الأثر المروى « قال إبليس وعزتك وجلالك لأزال أغويهم مادامت أرواحهم  
فى أجسادهم ، فقال الله عز وجل « وعزقى وجلالى لأزال أغفر لهم ما استغفرونى » .

ثم رغبهم سبحانه فى امتثال ما يأمرهم به ، ورهبهم عما ينهاهم عنه فقال :  
( والله يعلم متقلبكم ومثواكم ) أى والله يعلم تصرفكم فى نهاركم ومستقركم فى ليالكم ،  
فاتقوا الله واستغفروه ، فهو جدير بأن يتقى ويخشى ، وأن يستغفر ويسترحم .

ونحو الآية قوله : « وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ »  
وقوله : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا  
كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » .

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ ، فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ  
وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ

الْمَغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَىٰ لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ ، فَإِذَا  
عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ  
أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ  
فَأَصَمَّهُمْ وَأَعَمَّىٰ أَبْصَارَهُمْ (٢٣) .

### شرح المفردات

لولا: كلمة تفيد الحث على حصول ما بعدها ، أى هلا أنزلت سورة في أمر الجهاد ،  
محكمة: أى بيّنة واضحة لا احتمال فيها لشيء آخر، مرض: أى ضعف ونفاق ، نظر المغشى  
عليه من الموت : أى كما ينظر المصروع الذى لا يظرف بصره ، جنباً منهم وهلما ،  
أولى لهم : أى فويل لهم ، وهو من الولى بمعنى القرب ، والمراد الدعاء عليهم بأن يليهم  
المسكروه ويقرب منهم ، عزم الأمر: أى جدّ أو لو الأمر ، عسى كلمة تدل على توقع  
حصول ما بعدها ، توليتم : أى توليت أمور الناس . وتأمرتم عليهم .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه حال المنافقين والكافرين والمؤمنين حين استماع آيات  
التوحيد والحشر والبعث وغيرها من الأمور التى أوجب الدين علينا اعتقادها بقوله  
فيا سلف « وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ » وقوله « وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى » —  
أردف هذا فذكر حالهم فى الآيات العملية كآيات الجهاد والصلاة والزكاة ونحوها ،  
فأبان أن المؤمنين كانوا ينتظرون مجيئها ويرجون نزولها ، وإذا تأخرت كانوا  
يقولون : هلا أمرنا بشيء من ذلك ، لينالوا ما يقربهم من ربهم ويحصلوا على رضوانه ،  
والزلفى إليه ، وأن المنافقين كانوا إذا نزل شيء من تلك التكاليف شق عليهم ونظروا  
نظرة المصروع الذى يشخص بصره خوفاً وهلما . ثم ذكر نتيجة لما سلف ، وفذكرة

لما تقدم ، فأعقب هذا بأن الله طرد المنافقين وأبعدهم من الخير ، ومن قبل هذا أصحهم فلا يسمعون الكلام المستبين ، وأعمى أبصارهم فلا يسيرون على الصراط المستقيم ، أما المؤمنون فقد رضى الله عنهم وأرضاهم ، ونالوا محبته ، ودخلوا جنته ، فضلا منه ورحمة ، والله ذو الفضل العظيم .

## الإيضاح

( ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة ، فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين في قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المفضى عليه من الموت ) أى إن المؤمنين المخلصين في إيمانهم يشتاقون للوحى ، ونزول آيات الجهاد حرصا على ثوابه ويقولون : هلا أنزلت سورة تأمرنا به ، فإذا أنزلت سورة واضحة الدلالة فى الأمر به فرحوا بها ، وشق ذلك على المنافقين ، وشخصت أبصارهم هلعا وجينا من لقاء العدو ونظروا معتاطين بتحديد وتحديق كمن يشخص بصره حين الموت .

ونحو الآية قوله « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كَفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ، فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ، وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ ؟ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ . »

ثم هددهم وتوعدهم فقال :

( فأولى لهم ) أى فالموت أولى لمثل هؤلاء المنافقين ، إذ حياتهم ليست فى طاعة الله ، فالموت خير منها ، وقد يكون المعنى على التهديد والوعيد والدعاء عليهم بالهلاك ، فكأنه قيل : أهلكهم الله هلاكا أقرب لهم من كل شر وهلاك ، فهو نحو قولهم فى الدعاء « بُدِّأْ لَهُ وَسُخِّمًا » .

قال الأصمعي معناه : قاربه ما يهلكه أى نزل به ، وأنشد :

فَعَادَى بَيْنَ هَادِيَتَيْنِ مِنْهَا وَأُولَى أَنْ يَزِيدَ عَلَى الثَّلَاثِ

أى قارب أن يزيد .

( طاعة وقول معروف ) أى طاعة الله وقول معروف أمثل لهم وأحسن مما هم فيه من الهلع والخزع والجبن من لقاء العدو ، فمتاع الحياة الدنيا متاع قليل وظل زائل والآخرة خير لمن اتقى .

( فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيرا لهم ) أى فإذا حضر القتال كرهوه وتحلفوا عنه خوفاً وقرآناً ، ولو صدقوا فى إيمانهم واتباعهم للرسول ، وأخلصوا النية فى القتال لكان خيراً لهم عند ربهم ، إذ ينالون الثواب والزلفى عند ربهم ويعطيهم ما تقرّ به أعينهم ويدخلهم جنات النعيم .

ثم خاطب أولئك المناقذين خطاب توبيخ وتأنيب فقال :

( فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ) أى لعلمكم لما عهد فيكم من الحرص على الدنيا وزخرفها « إذ قد أمرتم بالجهاد الذى هو الوسيلة إلى الثواب فكروهتموه ، وظهر عليكم ما ظهر من الخوف والهلع والتشبت بالبقاء فى هذه الحياة والتكالب على زينتها » إن أتم توليتم أمور الناس وصرتم عليهم أمراء أن تفسدوا فى الأرض بالبعى وسفك الدماء ، وتقطعوا أرحامكم فتعودوا إلى تباغض الجاهلية من إغارة بعضكم على بعض ونهب الأموال وسفك الدماء .

والخلاصة — إنه لا عجب بعد أن صدر منكم ما صدر من كراهة الدفاع عن حوزة الإسلام — أن تعيدوا أحوال الجاهلية جَزَعَةً إذا صرتم أمراء الناس وولاتهم .

وبعد أن ذكر هفواتهم بين سببها فقال :

( أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ) أى فهولاء هم الذين أبعدهم الله من رحمته ، فأصمهم عن الانتفاع بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم عن الاستفادة

مما شاهدوا من الآيات المنصوبة في الأنفس والآفاق ، فلم يكن سماعهم سماع إدراك ، ولا إبصارهم إبصار اعتبار .

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فأخذت بحمئى الرحمن فقال مَهْ ، قالت هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال نعم ؛ أما ترصين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك ، قالت بلى ، قال : فذلك لك ، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم اقرأوا إن شئتم (فَهَلْ عَسَيْتُمْ) الآية . أخرجه البخارى ومسلم وغيرهما ، وقد ورد أحاديث كثيرة في صلة الرحم .

أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤) إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا  
عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمَلَى  
لَهُمْ (٢٥) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ  
الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ (٢٦) فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ  
وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَارَهُمْ (٢٧) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا  
رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ (٢٨) أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ  
يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ (٢٩) وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكُمْ قَلْعَ رَفْتِهِمْ بِسِيَاهُمْ  
وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٠) وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى  
نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَنَّكُمْ (٣١) .

## شرح المفردات

يتدبرون القرآن : أى يتصفحون ما فيه من المواعظ والزواجر حتى يقلعوا عن الوقوع فى الموبقات ، ارتدوا على أديارهم : أى رجعوا إلى ما كانوا عليه من الكفر ، سؤل لهم : أى سهل لهم وزين ، وأملى لهم : أى مد لهم فى الأمانى والآمال ، يضربون وجوههم وأديارهم : أى يتوفونهم وهم على أهول الأحوال وأفظعها ، والأضغان : واحداً ضغن ، وهو الحقد الشديد ، وتضاغن القوم واضطغنوا إذا أبطنوا الأحقاد ، قال :

قل لابن هندٍ ما أردتَ بمنطِقِ ساءَ الصديقِ وشيّد الأضغانا ؟

لأريناكم : أى لعرفناكم ، والسيىمى : العلامة ، ولحن القول : أسلوبه بامالته عن وجهه من التصريح إلى التعريض والتورية ، ولنبلونكم : أى لنختبرنكم .

## المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن أولئك المنافقين أبدمهم الله عن الخير فأصمهم فلم ينتفعوا بما سمعوا ، وأعمى أبصارهم فلم يستفيدوا بما أبصروا - بين أن حالهم دائرة بين أمرين : إما أنهم لا يتدبرون القرآن إذا وصل إلى قلوبهم ، أو أنهم يتدبرون ولكن لا تدخل معانيه فى قلوبهم لكونها مغلقة ؛ ثم ذكر أنهم رجعوا إلى الكفر بعد أن تبين لهم الهدى بالدلائل الواضحة ، والمعجزات الباهرة ، وقد زين لهم الشيطان ذلك وخدعهم بباطل الأمانى ، ثم بين سبب ارتدادهم وهو قولهم لبنى قريظة والنضير من اليهود : سنطيعكم فى بعض أحوالكم وهو ما حكى عنهم فى قوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَاقَبُوا يَقُولُونَ إِخْوَانِنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِنَّهُمْ أُخْرِجُوا لِنُخْرِجَنَّهُمْ مَعَكُمْ وَلَا نَطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِنْ قَوْلُهُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ » والله يعلم ما يصدر عنهم من كل قبيح .

ثم أردف هذا بذكر ما يصادفونه من الأهوال إذا جاءتهم الملائكة لقبض أرواحهم بسبب اتباعهم أهواءهم وعمل ما يفضب ربهم ، ومن ثم أحبط أعمالهم ، وهل يعتقد هؤلاء المنافقون أن الله لا يكشف أمرهم لعباده المؤمنين؟ بلى إنه سيوضح ذلك لذوى البصائر ، ولو نشاء لأريناك أشخاصهم ففرقتهم عيانا ، ولكن لم نفعل ذلك ، سترأ منا على عبادنا وحملنا للأمور على ظاهرها السلامة ، ورداً للسرائر إلى عالمها ، وإنك لتعرفتهم فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم بما هم يضعونها أثناء حديثهم ، وقد كان يفهمها رسول الله صلى الله عليه وسلم ويفهم مراميها فلا تخفى عليه .

ثم ذكر أنه يتلى عباده بالجهاد وغيره ليعلم الصادق في إيمانه ، الصابر على مشاق التكليف من غيره ، ويختبر أعمالهم حسناتها وسيئها فيجازيهم بما قدموا « فَن يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ . وَمَنْ يَفْعَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ » .

## الإيضاح

( أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ؟ ) أى أفلا يتدبر هؤلاء المنافقون مواعظ الله التى وعظ بها فى أى كتابه ، ويتفكرون فى حججه التى بينها فى تنزيله فيعملوا خطأ ما هم عليه مقيمون ، أم هم قد أقفل الله على قلوبهم فلا يعقلون ما أنزل فى كتابه من العبر والمواعظ ؟ .

والخلاصة — إنهم بين أمرين كلاهما شر ، وكلاهما فيه الدمار والمصير إلى النار ، فإما أنهم يعقلون ولا يتدبرون ، أو أنهم سلبوا العقول فهم لا يعنون شيئاً .  
ولما أخبر بأقفال قلوبهم بين منشأ ذلك فقال :

( إن الذين ارتدوا على أديارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سؤل لهم وأملى لهم ) أى إن الذين رجعوا القهقرى على أعقابهم كفاراً من بعد ماتبين لهم الهدى

وقصد البيل ، فعرفوا واضح الحجج ثم آثروا الضلال على الهدى عنادا لأمر الله -  
الشیطان زين لهم ذلك وخذعهم بالأمال ، وحسن لهم مافی الدنيا من لذة يتمتعون  
بها إلى حين ثم يعودون كما كانوا مؤمنین ، إلى نحو ذلك من وساوسه التي لا تدخل  
تحت الحصر ، ولا يبلغها العدّ .

ثم ذكر كيف إنهم ضلوا فقال :

( ذلك بأنهم قالوا للذين كرهوا ما نزل الله سنطيعكم في بعض الأمر والله يعلم  
إسرارهم ) أى ذلك الضلال من قبل أنهم مالئوا اليهود من بنى قريظة والنضير  
وناصحوهم سرا على المؤمنین كما هو شأن المنافقین في كل زمان ، والله يعلم ما يسرون  
وما يخفون وهو مطلع عليهم وعالم بهم .

ولا يخفى مافی ذلك من الوعيد وشديد التهديد .

ونحو الآية قوله : « وَاللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّنُونَ » .

ثم ذكر أن هذه الخيل إن أجدت في حياتهم فماذا هم فاعلون حين وفاتهم فقال :  
( فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم ) أى فكيف  
يفعلون إذا جاءتهم الملائكة الموت لقبض أرواحهم على أقبح الوجوه وأفظعها ، وقد  
مثل ذلك بحال يخافونها في الدنيا ، ويحبنون عن القتال من أجلها ، وهو الضرب  
على الوجوه والأدبار ، إذ في يوم الوفاة لانصرة لهم ولا مفرّ ، فكيف يحترزون من  
الأذى ، ويبتعدون من العذاب .

ثم بين سبب التوفى على تلك الحال الشنيعة فقال :

( ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ) أى ذلك  
الهلول الذي يروونه من أجل أنهم انهمكوا في المعاصى وزئبت لهم الشهوات ، وكرهوا  
ما يرضى الله من الإيمان به والعمل على طاعته والإخلاص له في السر والعلن ، فأحبط  
مأعملوه من البر والخير كالصدقات والأخذ بيد الضعيف ومساعدة البائس الفقير

وإغاثة الملهوف إلى نحو أولئك ، إذ هم فعلوه وهم مشركون فلم تكن لله ولا بأمره ، بل بأمر الشيطان للفخر وحسن الأحدثوة بين الناس .

ثم بالغ في توبيخ المنافقين وإظهار خباياهم ، وإعلان نواياهم فقال :

( أم حسب الذين فى قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ) أى أم يعتقد أولئك المنافقون الذين فى قلوبهم حقد وعداوة للمؤمنين أن الله لا يكشف أستارهم ويبرز أحقادهم ، بل يسيبرزها للرسول صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين فلا تبقى مستورة ، وقد أنزل الله فى فضائحهم وما يبيطنون من الأفعال سورة براءة ، ولذا تسمى الفاضحة كقوله فيهم : « وَلَا تَصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » وقوله : « قُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا » .

ثم أكد ما فهم من سالف الكلام وأنه سيظهرها فقال :

( ولو نشاء لأرينا لهم فلعرفتهم بسيماهم ) أى ولو نشاء أيها الرسول لعرفناك أشخاصهم ، فعرفتهم عيانا بعلامات هى غالبية عليهم ، ولكنه لم يفعل ذلك فى جميع المنافقين لستر على خلقه ، ورداً للسرائر إلى عالمها ، وحرصا على ألا يؤذى ذوى قرباهم من المخلصين .

( ولتعرفتهم فى لحن القول ) أى ولتعرفتهم فيما يداورونه من القول فيعدلون عن التصريح بمقاصدهم إلى التعميرض والإشارة ، وإياه عنى القائل فى مدح محبوبته فقال :

منطق صائب وتلحن أحياءنا وخير الحديث ما كان لحننا

يريد أنها تتكلم بشيء وتريد غيره وتعرض فى حديثها فتزيله عن جهته ، لفظنتها وذكائها .

وقد كانوا يخاطبون الرسول صلى الله عليه وسلم بألفاظ ظاهرها الحسن وهم يعنون بها القبيح . قال الكلبي : فلم ينكلم بمد نزلها عند النبي صلى الله عليه وسلم منافق

إلا عرفه ، وقال أنس : فلم يخف مناقق بعد هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، عرفه الله ذلك بوحى أو علامة عرفها بتعريف الله إياه .

وفي الحديث : « ما أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر » .

وروى أن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال : ما أسر أحد سريرة إلا أبدأها الله على صفحات وجهه وفتلات لسانه .

وقد ثبت في الحديث تعيين جماعة من المناققين ، فقد روى أحمد عن عقبة ابن عامر قال : « خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطبة حمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن فيكم مناققين فمن سميت فليقم ، ثم قال : قم يا فلان ، قم يا فلان ، قم يا فلان حتى سمى ستة وثلاثين رجلاً ، ثم قال : إن فيكم مناققين فاتقوا الله ، قال فمرّ عمر رضى الله عنه برجل ممن سمى مقنّع قد كان يعرفه ، فقال مالك ؟ فحدثه بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال بُدِّأ لك سائر الدهر » .

ثم وعد سبحانه وأوعد وبشر وأنذر فقال :

( والله يعلم أعمالكم ) فيجازيكم بما قدمتم من خير أو شر ، إذ لا يضيع عمل عامل عدلاً منه ورحمة .

( ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ) أى ولنختبرنكم بالأمر بالجهاد وسائر التكاليف الشاقة حتى يميز المجاهد الصابر من غيره ، ويعرف ذو البصيرة في دينه من ذى الشك والحيرة فيه ، والمؤمن من المناقق ، ونبلو أخباركم فنعرف الصادق منكم في إيمانه من الكاذب .

قال إبراهيم بن الأشعث : كان الفضيل بن عياض إذا قرأ هذه الآية بكى وقال : اللهم لا تبتلنا فانك إذا بلوتنا فضحتنا وهتكت أستاذنا .

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ  
 مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَىٰ لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا وَسَيُجْطَبُ أَعْمَالَهُمْ (٣٢) يَا أَيُّهَا  
 الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ (٣٣)  
 إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ مَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ  
 اللَّهُ لَهُمْ (٣٤) فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ  
 وَلَنْ يَتَرَكُمُ أَعْمَالَكُمْ (٣٥) .

### شرح المفردات

شاقوا الرسول: أى عادوه وخالفوه ، وأصله صاروا فى شِقِّ غير شقه ، فلا تهنوا:  
 أى فلا تضعفوا عن القتال ، من الوهن وهو الضعف، وقد وهن الإنسان ووهنه غيره ،  
 وتدعوا إلى السلم: أى تدعوا الكفار إلى الصلح خوفا وإظهارا للعجز ، الأعلون:  
 أى الغالبون ، والله معكم: أى ناصركم ، لن يترككم أعمالكم: أى لن ينقصكموها؛ من  
 وترت الرجل: إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو جيم أو سلمت ماله وذهبت به ،  
 فشبّه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الوتر .

### المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المنافقين ستفضح أسرارهم ، وأنهم سيلقون شديد الأهوال  
 حين وفاتهم — أردف ذلك بذكر حال جماعة من أهل الكتاب وهم بنو قريظة  
 والنضير كفروا بالله وصدوا الناس عن سبيل الله وعادوا الرسول بعد أن شاهدوا نعمة  
 فى التوراة ، وما ظهر على يديه من المعجزات ، فهؤلاء لن يضرروا الله شيئا بكفرهم ،  
 بل يضررون أنفسهم وسيجذب الله مكايدهم التى نسبوها لإبطال دينه ، ثم ذكر

قصاص بنى سعد وقد أسلموا وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: قد آثرناك وجئناك بنفوسنا وأهلينا، منّا بذلك عليه، فنهام عن ذلك وبين لهم أن هذا مما يبطل أعمالهم، ثم أعقب هذا ببيان أن من كفر وأصدوا عن السبيل القويم ثم ماتوا وهم على هذه الحال فلن يغفر الله لهم، ثم أرشد إلى أن عمل الكافرين الذى له صورة الحسنات محبط وأن ذنبهم غير مغفور، وبعدئذ أردف هذا بأن الله خاذلهم فى الدنيا والآخرة فلا تبالوا بهم ولا تظهروا ضعفًا أمامهم، فإن الله ناصركم ولن يضيع أعمالكم.

### الإيضاح

(إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى لن يضروا الله شيئاً وسيحبط أعمالهم) أى إن الذين جحدوا توحيد الله وصدوا الناس عن دينه الذى بعث به رسوله، وخالفوا هذا الرسول وخاربهوه وآذوه من بعد أن استبان لهم بالأدلة الواضحة، والبراهين الساطعة أنه مرسل من عند ربه - لن يضروا الله شيئاً، لأن الله بالغ أمره وناصر رسوله، ومظهره على من عاداه وخالفه، وسيبطل مكائدهم التى نصبوها، لإبطال دينه ومشاققة رسوله، ولا يصلون بها إلى ما كانوا يبغيون له من العوائل، وستكون ثمرتها إما قتلهم أو جلاءهم عن أوطانهم والمراد بصد الناس عن سبيل الله، منعهم إياهم عن الإسلام بشتى الوسائل، وعن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم والانصواء تحت لوائه.

ثم أمر سبحانه عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم فقال: (يأيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول) أى يأيها الذين صدقوا بوحدانية الله وقدرته وسائر صفات كماله، وصدقوا رسوله فيما جاء على لسانه من الشرائع - أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فى اتباع أوامرهما والالتفاء عن نواهيهما.

ثم نهام عن أن يبطلوا أعمالهم كما أبطلت الكفار أعمالهم فقال :

(ولا تبطلوا أعمالكم) أى لا تبطلوا حسناتكم بالمعاصي قاله الحسن ، وقال الزهري بالكبائر . وقال مقاتل بالذنوب والأذى ، وقال عطاء بالنفاق والشرك ؛ والأولى أن يراد به النهي عن كل سبب من الأسباب التي تكون سببا في إبطال الأعمال كأننا ما كان بلا تخصيص بنوع معين .

وعن أبي العافية قال : كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع لاله إلا الله ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك عمل حتى نزلت هذه الآية ، تخافوا أن يبطل الذنب العمل .

وعن ابن عمر رضى الله عنهما قال : كنا معشر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم نرى أنه ليس شيء من الحسنات إلا مقبولا حتى نزلت : (أطيعوا الله وأطيعوا الرسول ولا تبطلوا أعمالكم) فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا ؟ فقلنا الكبائر الموجبات والفواحش ، فكنا إذ رأينا من أصاب شيئا منها ، قلنا قد هلك حتى نزل « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ » فكفنا عن القول في ذلك ، وكنا إذا رأينا أحدا أصاب منها شيئا خفنا عليه ، وإن لم يصب منها رجونا له .

وأخرج عبد بن حميد عن قتادة أنه قال في الآية : من استطاع منكم ألا يبطل عملا صالحا بعمل سوء فليفعل ولا قوة إلا بالله تعالى .

ثم بين سبحانه أنه لا يغفر العصيين على الكفر والصد عن سبيل الله فقال : (إن الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله ثم ماتوا وهم كفار فلن يغفر الله لهم) أى إن الذين جحدوا وتوحيد الله وصدوا من أراد الإيمان بالله ورسوله عن ذلك ، وحالوا بينهم وبين ما أرادوه ، ثم ماتوا وهم على كفرهم — فلن يغفر الله سبحانه عما صنعوا ، بل يعاقبهم ويفضحهم به على رؤوس الأشهاد .

وقيد سبحانه عدم المغفرة بالموت على الكفر ، لأن باب التوبة وطريق المغفرة لا يفلقان على من كان حيا .

ثم ذكر سبحانه أن لاجرمة للكافر في الدنيا والآخرة ، فأمر بقتالهم وأرشد إلى أن النصر حليف المؤمنين فقال :

( فلا تهنوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن يتركم أعمالكم ) أى فلا تضعفوا أيها المؤمنون عن جهاد المشركين وتجنبوا عن قتالهم ، وتدعواهم إلى الصلح والمسائلة خوراً وإظهاراً للعجز ، وأنتم العالون عليهم والله معكم بالنصر لكم عليهم ، ولا يظلمكم أجور أعمالكم فينقصكم ثوابها .

إِنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ، وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أَجُورَكُمْ  
وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ (٣٦) إِنْ سَأَلَكُمْ هَا فَيُحْفِكُمْ تَبَخَّلُوا  
وَيُخْرِجُ أَضْغَانَكُمْ (٣٧) هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَدْعُونَ لِنُفْسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ،  
فَنِيكُم مَّن يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَّفْسِهِ ، وَاللَّهُ الْغَنِيُّ  
وَأَنْتُمْ الْفُقَرَاءُ ، وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبَدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا  
أَمْثَالَكُمْ (٣٨) .

### شرح المفردات

كل ما اشتغلت به مما ليس فيه ضرر في الحال ولا منفعة في المال ولم ينمك عن مهام أمورك فهو لعب ، فإن شغلك عنها فهو لهو ، ومن ثم يقال آلات الملاهي ، لأنها مشغلة عن غيرها ، ويقال لما دون ذلك لعب كاللعب بالشطرنج والتردد والحمام ، فيحفكم : أى فيجهدكم بطلبها جميعها ، والإلحاف والإحفاء بلوغ الغاية في كل شيء ؛ يقال أحفاه في المسألة : إذا لم يترك شيئاً من الإلحاح ، أضغانكم : أى أحقادكم .

## المعنى الجملى

بعد أن أمر المؤمنين بترك المعاصى لأنها محبطة لثواب الأعمال الصالحة ، وأمرهم بالتشمير عن ساعد الجدل للجهاد ومقاتلة الأعداء نصره لدينه ، ووعدهم بأن الله ناصرهم وهم الأعداء ، فلا ينبغي لهم أن يطلبوا المهادنة من العدو خوفاً وجبناً خوفاً على الحياة ولذاتها — أكد هذا المعنى فأبان أنه لا ينبغي لكم أيها المؤمنون الحرص على الدنيا ، فإنها ظل زائل وعرض غير باق ، وما هي إلا لذات مؤقتة لا تلبث أن تزول ، وهي مشغلة عن صالح الأعمال فلا يليق بكم أن تعصوا عليها بالنواجذ ، بل اعملوا لما يرضى ربكم يؤتكم أجوركم وهو لا يسألكم من أموالكم إلا القليل النزر الذى فيه صلاح المجتمع للمعونة على القيام بالمرافق العامة ، دينوية كانت أو دنيوية ، وهو علم بأنكم أشجع على أموالكم ، فلو طلبها لبخاتمها وظهرت أحقادكم على طالبها ، والله قد طلب إليكم الإنفاق فى سبيله والقيام بما تحتاج إليه الدعوة ، فإن بخلتم فضرر ذلك عائد إليكم ، والله غنى عن معونتكم ، وإن أعرضتم عن الإيمان والتقوى يأت الله بخلق غيركم يقيمون دينه وينصرون الدعوة .

## الإيضاح

( إنما الحياة الدنيا لعب وهو ) يقول سبحانه حاصراً عبادة المؤمنين على جهاد أعدائه والنفقة فى سبيله وبذل مهجتهم فى قتال أهل الكفر به : فأنلوا أيها المؤمنون أعداء الله وأعداءكم من أهل الكفر ، ولا تدعكم الرغبة فى الحياة إلى ترك قتالهم ، فإنما الحياة الدنيا لعب وهو لا يلبث أن يضمحل ويذهب إلا ما كان منها من عمل فى سبيل الله وطلب رضاه .

ثم رغبتهم فى العمل للآخرة فقال :

( وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ) أى وإن تؤمنوا

ربكم وتتقوه حق تقائه فتؤدوا فرائضه وتجتنبوا نواهيه — يؤتكم ثواب أعمالكم فيعوضكم عنها ما هو خير لكم يوم فقركم وحاجتكم إلى أعمالكم ، وهو لا يأمركم بإخراجها جميعها في الزكاة وسائر وجوه الطاعات ، بل يأمركم بإخراج القليل منها وهو ربع العشر للزكاة مواساة لإخوانكم الفقراء ، ونفع ذلك عائد إليكم .

ثم بين شح الإنسان على ماله وشدة حرصه عليه فقال :

( إن يسألكوها فيحكم تبخلوا ويخرج أضغانكم ) أى إن يسألكم ربكم أموالكم فيجهدكم بالمسألة ويلحف عليكم بطلبها — تبخلوا بها وتنعوها إياه ضنا منكم بها ، لكنه علم ذلك منكم فلم يسألكوها فيخرج ذلك السؤال أحقادكم لمزيد حيلكم للمال .

قال قتادة : قد علم الله أن في سؤال المال خروج الأضغان للإسلام من حيث حبة المال بالحبلة والطبيعة ، ومن نوزع في حبيبه ظهرت طويته التي كان يُبترها .  
وإخلاصة — قد علم الله شح الإنسان على المال فلم يطلب منه إلا التزير اليسير في الصدقات ، وبذل المال في المرافق العامة لإصلاح شئون المجتمع الإسلامى كسد الثغور وبناء القناطر والجسور .

ثم أكد ماسلف وقرره بقوله :

( هاتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله ) أى هاتم أيها المؤمنون تدعون إلى النفقة في جهاد أعداء الله ونصرة دينه .

( فمنكم من يبخل ومن يبخل فإنما يبخل عن نفسه والله الغنى وأتم الفقراء ) أى فمنكم من يبخل عن النفقة في هذا السبيل ، ومن يبخل فإنما ضرر ذلك عائد إلى نفسه ، لأنه ينقصها أجرها من الثواب ، ويبعدها من رضا الله والقرب منه في جنات النعيم ، والله لا حاجة إليه في أموالكم ولا نفقاتكم فهو الغنى عن خلقه ، وخلقته فقراء إليه ، وإنما حضكم على النفقة في سبيله لتنالوا بذلك الأجر والثواب .  
( وإن تتولوا يستبدل قوما غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ) أى وإن تعرضوا

عن طاعة الله وانبايع شرائعه وترتدوا راجعين عنها يهلككم ثم يحيىء بقوم آخرين غيركم يصدقون بها ويعملون بالشرائع التي أنزلها على رسوله ، ويقومون بذلك كله على ما يؤمرون به ، والمراد بهم على ما صح في الحديث أهل فارس .

أخرج عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي والترمذي عن أبي هريرة قال : « تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية (وَإِنْ تَوَلَّوْا) الخ فقالوا يا رسول الله من هؤلاء الذين إن تولينا استبدلوا بنا ، ثم لا يكونون أمثالنا ؟ فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم على منكب سلمان ، ثم قال هذا وقومه ، والذي نفسى بيده لو أن هذا الدين تعلق بالثريا لتناولوه رجال من فارس » .

وقد طعن بعض رواة الحديث فيه وجرحوا بعض رواة ، قال ابن كثير وقد تكلم فيه بعض الأئمة رحمة الله عليهم .

قال الكلبي : شرط في الاستبدال توليهم لكنهم لم يقولوا فلم يستبدل سبحانه قوما غيرهم بهم .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله ، ونصر دينه بأتباعه المؤمنين ، وجعلهم للعمل بنشره دائمين .

### اشتملت هذه السورة السكرية على ثلاثة مقاصد

(١) وصف الكافرين والمؤمنين من أول السورة إلى قوله : « كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ » .

(٢) جزاء الفريقين في الدنيا والآخرة من خذلان ونصر ونار وجنة من قوله : « فَإِذَا أقيمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرَّقَابِ — إِلَى قَوْلِهِ : وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَاكُمْ » .

(٣) الوعد والتهديد للمنافقين والمرتدين من قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نَزَلَتْ سُورَةٌ » إلى آخر السورة .